مدعو النبوة في بلاد المغرب الإسلامي
تحدي واستجابة

الأستاذ إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر

توطئـــــة:

من الظواهر التي صاحبت انتقال سكان بلاد المغرب إلى حظيرة الإســـــلام ظـــهور مدعو النبوة خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، الذين قاموا بوضع تشريعات حـــاولوا بها مضاهاة التشريعات الإسلامية، ومحاكاة القرآن الكريم. فما طبيعة هذا الأدعاء، ومـــا أهدافه؟ ومن هم هؤلاء الذين تجرأوا على تحمل وزر مثل هـــذا الأدعـــاء؟ ومـــا هـــي منطلقاتهم الفكرية والاجتماعية؟ وما هي الظروف التي ساعدتهم على الظهور؟ وكيـــف كانت الاستجابة لهم؟ وهل يدخل هذا الإدعاء في سياق مقاومة المغاربة التاريخية لكـــل دخيل، أم هو ثـــورة على التعسف والظلم والإقصاء؟

لقد تحدثت جل المصادر لا سيما المغربية عن هؤلاء المتنبئين ببلاد المغـــرب،غـــير أن معظمها تنقل عن مصدر واحد هو البكري (ت٤٨٧/١٠٩٤) الذي نقلها عن روايـــة أبي صالح زمور بن موسى رواها حين جاء في وفد مبعوثا إلى الحكم المستنصر بقرطبة ســـنة ٣٥٢/ ٩٦٣م[1] لذلك فإن المصادر تشترك في تقديم صورة واحدة عن هؤلاء المدعين، الذيـــن تصفهم بالكفر والكذب والافتراء وتعُدهم مرتدين، وهو نفس ما قالتـــه عـــن زعمـــاء المقاومة البربرية مثل ميسرة، واليسع، وابن واسول، أما المستشرقون والكتاب الغربيـــون فقد صنفوهم ضمن حركات الرفض والثورة الشرعية. فالبحث في أسباب وأهداف هذه

1- الاسم الكامل هو أبو موسى بن هشام بن واردیزن رسول أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبـد الله ابن أبي غيير بن يحمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف صاحب برغواطة، انظر، المغـــرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (بغداد)، مكتبة المثنى، ١٣٤.

الحركات من شأنه إزاحة الغبار عن معالم أخرى في تاريخنا، ويقرب تصورنا للوقائع التاريخية كما هي لاكما صورتها المصادر الأحادية الطرح.

*** الظروف ولأسباب:**

إن الظروف التي سهلت ظهور مدعو النبوة ببلاد المغرب أو البدع كما يسميها المؤرخون كانت في مقدمتها تلك التحولات الكبرى التي شهدها المغرب منذ عهد الفتح العربي الإسلامي في نهاية القرن ١هـ/٩ م حيث كان لا بد للتغيرات التي أدخلها الإسلام أن تصطدم بما هو كان قائما من تعاليم، وعقائد، وشرائع، وتقاليد، لاسيما وأن تعاليم الشريعة الإسلامية شكلت ثقلا على البربر في مرحلة التحول كما يقول البكري[1] وهو طبيعي فكل جديد يصطدم بالقديم، ويكون الصدام أخف إذا كان الجديد بديلا يرتكز على الحق، والعدل، والعلم، ويمكن حصر الظروف والأسباب في الأتي:

أولا ــ الظروف والأسباب السياسة: لقد كان القرن السابع الميلادي بالنسبة للسلطة الأجنبية البيزنطية قرن تراجع كبير حيث لم يبق لها شأن يذكر إلا في بعض الحواضر في شرق بلاد المغرب، وقد أدى هذا الوضع إلى قيام كيانات مستقلة أساسها القبيلة، وهو ما سوف تقوم عليه الدول ببلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي مثل دولة تاهرت التي أساسها زناتة، ووالدولة الفاطمية التي قامت على أكتاف قبيلة كتامة، ودولة الزيريين على أساس قبيلة صنهاجة.

إن الطابع الاستقلالي للقبيلة، والزعامة المتجذرة فيها، وروح المقاومة، وسلوك بعض الولاة وتعسفهم في أوائل الفتح أدت إلى عدد من ردود الأفعال منها الردة عن الإسلام، والتمرد والقيام بثورات، والمقاومة السياسية والفكرية من أبرزها إدعاء النبوة.

1- المغرب، ٩١ .

ويبدو لي أن هناك دافعين أساسيين، وهما انتشار الفكر الإسلامي الخارجي التحرري بين القبائل البربرية الجبلية التي تعرف برفضها للهيمنة، والخضوع للنظام المركزي، وفشل الثورات مثل ثورة ميسرة المدغري سنة ١٢٢/٧٣٩.

ثانيا ــ بقايا تعاليم الديانات السابقة: من المعروف أن الديانات التي كانت سائدة قبل الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب هي اليهودية والنصرانية بالإضافة إلى الوثنية ذات التقاليد الواسعة والمتجذرة، وكانت الديانتان اليهودية والنصرانية قد كيفت من قبل سكان بلاد المغرب الذين قاموا بالمحاولة نفسها مع تعاليم الشريعة الإسلامية بعد اعتناقها بحكم عاملين: الطبيعة البشرية، وموروثهم الحضاري.

ثالثا ــ طبيعة السكان: تبعا لطبيعة سكان بلاد المغرب التي تشجع على التحرر من قيود النظم والعقائد لاسيما في نطاق القبيلة مدعومة بالظروف الطبيعية، فإنهم أرادوا على ما يبدو مضاهاة هذه الديانات بابتداع تعاليم ديانة خاصة بهم يكون مقامها بالنسبة للإسلام كمقام الإسلام بالنسبة لليهودية والنصرانية[1]، إنه مبتغى شجع المبتدعين ممن كان لهم طموح في الزعامة إدعاء النبوة، وابتداع دين خاص يستجيب لطبائع وطموحات السكان يحاكون به تعاليم الإسلام .

رابعا ــ استثقال شريعة الإسلام وتكاليفها: يبدو أن ثقل شرائع الإسلام كما يذكر البكري[2] كانت سببا في نفور بعض القبائل، وعدد من السكان من بعض تعاليمه وليس منه لاسيما ما يخص الأموال كالزكاة، والجزية التي أبقاها عليهم بعض الولاة رغم اعتناقهم الإسلام، وفرائض الصلاة والصوم والحج وما يترتب عنها من جهد، وامتناع عن الشهوات.

خامسا ــ دعوة الخوارج: انتقلت دعوة الخوارج الصفرية والإباضية، وتمكنت من سكان أرياف وبوادي بلاد المغرب، والتي تنسجم تعاليمها خاصة السياسة مع ميول

1- روني باسية rené basset، برغواطة، دائرة المعارف الإسلامية ــ معربة ــ، (طبعة بيروت.د. ت)، دار المعرفة، ٣/٥٥٠ .
2- البكري، المغرب، ٩١ .

هؤلاء السكان إلى الحرية، ورفض قيود النظام الذي تفرضه سلطة مركزية لاسيما أن الخوارج جاءوا بفكرة حرية اختيار الأمة للحاكم حتى ولو كان عبدا أسودا، وعزله[1] إذا انحرف أو بغى، فكانت هذه الأفكار دافعا قويا لركوب موجات التمرد والردة، ومحاولة ادعاء النبوة، ومن أقوى ردود الأفعال التي كان للفكر الخارجي الدور الأساسي فيها ثورة ميسرة المدغري في الركن الغربي من بلاد المغرب، كما كانوا من وراء الثورات التي اشتعلت نارها في جهات مختلفة من بلاد المغرب[2].

سادسا ــ استبداد بعض الولاة والحكام: تخبرنا المصادر عن استبداد بعض الولاة، وعدم اهتمام الخلفاء الأمويين بهذا الأمر، من ذلك موقف عقبة بن نافع من كسيلة زعيم البربر بل وإزاء أبي المهاجر دينار الوالي المعزول نفسه رغم ما أسداه من نصح فيما يخص معاملة سيد البربر كسيلة، وقد ذهب عقبة بن نافع ضحية سياسته المتسمة بالشدة والعنف[3]، كما أن هذه السياسة كادت تقضي على الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية في عهد المهدي الفاطمي (٢٩٦ ــ ٣٢٢ / ٩٠٨ ــ ٩٣٣) وخليفته القائم والمنصور (٣٢٢ ــ ٣٤١/ ٩٣٣ ــ ٩٥٢)، لاسيما موقف المهدي من كتامة التي تحملت أعباء نجاح الدعوة

1- الشهرستاني، الملل والنحل، (بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠)، دار المعرفة، ١/١١٥، ١١٦.

2- ابن عذاري المراكشي، البيان، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (ط، ٣، بيروزت، ١٩٨٣)، دار الثقافة ١/١٥٦، ٢٠٦، ابن، خلدون عبد الرحمن، العبر، (بيروت ١٩٦٨)، دار الكتاب اللبناني ٤/ ٧٠، ابن الخطيب لسان الدين، كتاب أعمال الأعمال، القسم الثالث، تحقيق، إ. ليفي بروفنسال، (بيروت ١٩٥٦)، دار المكشوف، ١٣٨ وما بعدها، السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، (الدار البيضاء، ١٩٥٤)، دار الكتاب، ١/١٢٥ وما بعدها، الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمالي الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، (بيروت،١٩٨١)، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠ وما بعدها؛ وأيضا بعض الرسائل الجامعية والبحوث والدراسات وبعض المراجع الأخرى أذكر منها بالفرنسية على سبيل المثال لا الحصر،

E.F. GAUTIER, les siècles obscurs maghreb, (paris, 1927), payot, p . 292.

3- يمكن الرجوع إلى العديد من المصادر في سياسة عقبة بن نافع أذكر منها: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، (القاهرة ١٤٢٢/١٩٩١)، مكتبة مدبولي، ١٠٨؛ ابن عذاري، البيان، ١/٣٨.

وقيام الدولة، وقتله للداعية أبي عبد الله الذي يعتبر زعيمها الروحي، وبعض رجالها[1]، مما كان له ردود أفعال سلبية لكنها لا تخرج عن الإسلام في جملتها.

سابعا ـــ الهياج الديني: عرفت القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية هيجانا دينيا وفكريا بالموازاة مع التغيرات السياسية حيث قامت حكومات ببلاد المغرب على أساس قبلي حكامها من المشرق مثل الرستميين والأدارسة[2]، في حين تمكنت المذاهب الفقهية والفرق الإسلامية[3] منه بانتشارها بين السكان وتوغلها في البوادي والأرياف، وصحب ذلك حركة علمية وفكرية تجلت في ظهور عدد من العلماء والمفكرين، وقيامهم بتصانيف ضاهوا بها علماء المشرق الإسلامي، وهو ما أعطى فرصة لمدعي النبوة من إبراز تفوقهم ونبوغهم في فهم الشريعة، وتأويل أحكامها لتتوافق وطبائع مجتمعهم القبلي.

*** نبوة برغواطة:** برغواطة بطن من بطون قبيلة مصمودة، ومصمودة من أكثر قبائل البربر وأوفرهم، وموطن برغواطة بالمغرب الأقصى في سهول تامسنا، وريف البحر المحيط من سلا وأزمور وأسفي، وكان زعيمهم لأول المائة الثانية ميسرة المدعري أو المطغري المعروف بالحقير أو الحفير القائم بدعوة الصفرية[4].

*** متنبؤ برغواطة:**

١ ـــ **طريف أبو صالح:** عاش في القرن الثاني الهجري[5]، مصمودي الأصل من زناتة، وهو من قواد ميسرة وبقي طريف قائما بأمر قبيلته بتامسنا، فتنبأ وشرع لها الشرائع[6]،

1- يستحسن الرجوع إلى المصادر والمراجع المختلفة في شأن مقتل الداعية أبي عبد الله أذكر منها: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، (الجزائر وتونس، ١٩٨٦)، الشركة التونسية للتوزيع، وديوان المطبوعات الجامعية، ٣٠٦ وما بعدها، لقبال موسى، دور كتامة، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتزيع، ص، ٣٢٧ وما بعدها.

2- ابن عذاري، البيان المغرب، ١/١٩٦، ٢١٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٤/ ٢٣،

3- يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى رسالتي للماجستير بعنوان: " دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي من القرن ٢ ـــ ٥ هـــ/ ٨ ـــ ١١ م" لاسيما الفصل الأول.

4- الفرد بل، المرجع السابق، ١٧٣.

5- لقد اعتمدت في ضبط تواريخ هؤلاء المتنبئين على رواية ابن عذاري، والتصحيح من ابن خلدون، وتجدر الإشارة إلى أن ثمة اختلاف واضح في هذه التواريخ بين المصادر والمراجع مثل أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب.

6- ابن خلدون، العبر، ٦/٤٢٨ .

والذي عاد من المشرق بعد أن حمله الخوارج إلى هناك، ولما هلك طريفا ترك أربعة أولاد منهم صالح، ويبدو أن القول بأن طريفا ظهر لأول الهجرة أو أول الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب الهدف منه تحذير هذه الديانة وتأصيلها لمضاهاة دين الإسلام.

٢ ــ صالح بن منصور بن طريف المعروف بالعبد الصالح، وصالح المؤمنين[1](١٢٧ ــ ١٧٤ /٧٤٤ ــ ٧٩٠)، وقيل عن صالح أنه كان إسرائيليا، وهو على ما يبدو رأي خصومه الذين زعموا أن أبيه الحقيقي شمعون بن يعقوب ابن إسحاق[2]، نشأ بقرية برباط، ولعله وادى بكة جنوب غرب الأندلس حيث كان قد انتصر طارق بن زياد بالقرب من شريش xères من أعمال الأندلس، ومن ثم جاء لقب "برباطي" الذي هو تحريف لبرغواطي، وأطلق على أتباعه، وقد فند ابن خلدون هذه الآراء التي أوردها صاحب كتاب "نظم الجوهر"[3].

وقيل أن ظهوره كان في المائة الأولى للهجرة وهو غير صحيح حسب رأي ابن خلدون، ومثل والده رحل هو الآخرُ إلى المشرق حيث درس على يد عبيد القدري المعتزلي، واشتغل بالسحر ــ لعله التنجيم ــ فمهر فيه، كما كان عالما زاهدا ورعا حسب عدد من المصادر مما ساعده بعد عودته إلى بلاده على استمالة الناس إليه حتى ولوه عليهم[4]، والمعروف أن هذه الصفات تتطابق تماما مع طبيعة سكان بلاد المغرب الذين يتميز الكثير منهم لا سيما الريفيون والبدويون بالسذاجة وطيبة النفس والخلق، والاعتقاد

1- قد يكون هذا الاسم "صالح المؤمنين" لقبا لكل متنبيء من أفراد هذه العائلة ؟
2- يبدو أن هذا من أقوال الخصوم المتأخرين حيث يظهر في قولهم نظرية التبني الروحاني، وهي نظرية فلسفية لم تعرفها بلاد المغرب إلا في عهد الدعوة الإسماعيلة الفاطمية، وخصوصا عند ظهور المهدي بشكل محدود جدا.
3-روني باسRené Basset برغواطة، ، ٣/٥٥١.
4- ابن عذاري، البيان، ١/ ٢٢٥، لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ٣/١٨٢.

في أمثال هؤلاء[1] إلى درجة أن أمنوا بأنهم وسطاء الله يجلبون لهم الخير، كما يجلبون لهم الشر لذلك فإن طاعتهم وخدمتهم لهؤلاء المدعين كانت من أوكد الواجبات.

وقد شارك صالح في ثورة وحروب ميسرة المدغري أو الحفير القائم بدعوة الصفرية، وقيل أن ميسرة استوزره ثم عزله لكن أوصى به أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر ووصفه لهم بأنه صاحب فضل وعلم[2] ثم خلف والده طريفا سنة ١٢٧/ ٧٤٤ في خلافة الوليد بن عبد الملك (١٢٥ ـــ ١٢٧ / ٧٤٣ ـــ ٧٤٤)[3]، وبعد أن هلك ميسرة قام بوضع ديانة لبرغواطة، وادعى أنه صالح المؤمنين المذكور في القرآن الكريم "**إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير**"[4] وأنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان، ثم عهد إلى ابنه الياس بديانته، ويبدو أن هذه الديانة بدأت صياغتها في عهد والده طريفا، وتبلورت معالمها على يده، وطبقها خلفاؤه، واقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتقليدا لسيرته، ولسيرة حياة بعض الرسل مثل عيسى عليهم السلام، فقد آثر أن يختفي ويترك مواصلة دعوته لمن يخلفه من أبنائه وأحفاده، وكأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وخرج إلى المشرق، وادعى أنه سوف يعود في دولة السابع، ويعود معه عيسى عليه السلام، ويكون صاحبه ويصلي خلفه، وتسمى بأسماء عديدة مثل صالح في العرب، ومالك في السريان، وعالم في الأعجمي، وروبيا في العبراني، وربا في البربر[5]، وقصة خروجه هذه يبدو أنها إما من وضع خلفائه لتقوية دعوتهم، وتعميق الإيمان بها، وإما من وضع الرواة والقصاص أو

1- هذه الصفات، وهذا الاعتقاد ظل قائما حتى عصرنا، وكما استقبلت في هذا الوقت النحل والملل خاصة نحلة الخوارج الصفرية ومال السكان نحو زعماء انحرفوا عن المنهج الإسلامي حسبما تخبر به المصادر.

2- لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ٣/ ١٨٢ .

3- تقول بعض المصادر أن صالحا خلف والده في عهد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـــ ١٢٥/ ٧٢٤ ـــ ٧٤٣)، وهو غير صحيح بالنظر إلى إجماع أغلب المصادر على خلافة صالح سنة ١٢٧ / ٧٤٤، وهو ما يوافق نهاية خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وبداية خلافة مروان بن محمد(١٢٧ ـــ ١٣٢/ ٧٤٤ ـــ ٧٤٩) أخر خلفاء بني أمية، انظر المصادر السابقة الذكر .

4- سورة التحريم، ٠٤ .

5- ابن خلدون، العبر، ٦/٤٢٩ .

الإخباريين حسبما أفاد به البكري، والراجح أن صالحا مات وأغلب الظن أنـــه مـــات مقتولا أثناء المعارك التي كانت متواصلة في تلك المناطق، و تقول رواية البكري[1] أنه مات بتامسنا ــ تامساماں ــ ودفن بقرية أفطي على شاطيء البحر وقبره بها يعرف إلى أيامـــه أي أيام البكري.

وقد اعتمد صالح السرية والاستناد إلى الأمويين بالأندلس لضمان نجـــاح واســتمرار دعوته، وكان ذلك فرصة للأمويين لأجل إضعاف النفوذ العباسي في المنطقـــة الغربيــة الاستراتيجية بالنسبة إليهم، كما تبنوا عقيدة المهدي المنتظر الذي سيخرج أخر الزمـــان لقتال الدجال، وأنه سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، والعقيدة نفسها استخدمت في بلاد المغرب أكثر من مرة منها أثناء الدعوة الإسماعيلية الفاطمية، والدعوة الموحديـــة وهي العقيدة التي تجذب إليها الطبقات المستضعفة والسذج والعوام من الناس، وتتلاءم مع طبيعة سكان بلاد المغرب التي يغلب عليها الطابع الريفي والبدوي، ويسودها نظام القبيلة المغلق؛ كما يبدو أن صالحا كان يعتقد بالحلول والرجعة، وبالسبعية، والفكرة الأخـــيرة بلورتها الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة لاسيما وأن صالحا كان يستخدم علـــم التنجيــم والكهانة في نشر دعوته[2] حيث كانت هذه المرحلة مرحلة تكويـــن العقـــائد والفـــرق والمذاهب الإسلامية التي تنوعت مشاربها، وتعدد تأثرها بعقائد وديانات الأمم الســـابقة عن الإسلام، وبذلك فإن سكان بلاد المغرب كانوا يبحثون عن طرق جديـــة وفعالـــة للإسهام في العطاء الحضاري الجديد العربي الإسلامي.

٣ ــ **الياس بن صالح بن طريف** (١٧٤ ــ ٢٢٤/ ٧٤٤ ــ٨٣٨)، كان مثـــل والـــده طاهرا عفيفا كما يقول ابن خلدون [3] الذي أوصى بأمر الدعوة وقيادة برغواطة له، ويبدو أن الديانة حتى عهده لم تنتشر خارج قبيلته برغواطة، لذلك واصل الياس إظهار إســـلامه وكتمان ديانته طيلة حياته في القيادة والدعوة، والتي دامت حسب المصادر حوالي خمـــس

1- المغرب، ٩٢ .
2- ابن عذاري، البيان، ١/٢٢٥، ابن خلدون، العبر، ٦/٤٢٩ .
3- العبر، ٦/٤٣٠ .

وخمسين سنة، ولم يظهرها إلا لمن وثق به من خاصته، وقد استجاب لدعوته عدد كبير من قبيلة زناتة وغيرها[1].

٤ ــ يونس بن إلياس بن صالح بن طريف (٢٢٤ ــ ٢٦٨ / ٨٣٨ ــ ٨٨١)، رحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج حيث لم يحج قبله أحد من أبائه ولا بعده من أبنائه، وقد مات بعد حكم دام أربعا وأربعين سنة، وهو الذي يقول عنه ابن خلدون: أنه أظهر دين أبائه وحمل الناس على اعتناقه، وقاتل من لم يؤمن به أو يدخل في دعوته حتى قيل أنه أحرق بنواحي تامسنا حوالي ٣٨٠ مدينة، وقتل ٧٧٠٠ نفسا بموضع تاملوكاف[2]، ومن الصعب تصديق هذه الرواية فإنه في عهد هذا الأمير إما أن يكون قد بعث تعاليم صالح بعد أن أهملت وإما أن يكون يونس هو صاحب هذه التعاليم بالفعل، وإن كان قد نسبها إلى جده[3]، وفي عهده انتقل الملك إلى ابن عمه أبو غفير، وكانت عاصمة ملكه مدينة شالة challa[4].

٥ ــ أبو غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف (٢٦٨ ــ ٢٩٧ /٨٨١ ــ ٩٠٩): يبدو أنه أخذ ملك برغواطة بالقوة من بني عمه كما أظهر ديانة برغواطة المبتدعة، وخاض حروبا طاحنة مع الأدارسة، وعن حياته الخاصة. يزعم المؤرخون أن له أربعا وأربعين زوجة، ومن الولد مثله، وقد مات في أواخر المائة الثالثة للهجرة بعد حكم دام تقريبا تسعا وعشرين سنة، وقد أشار إلى حروبه سعيد بن هشام المصمودي في شعر له قال فيه[5]:

قفي قبل التفرق واخبرينا   وقولي واخبري خبرا يقينا
وهدى أمة هلكوا وشلوا   وغاروا لا سقوا ماء معينا

1- لسان الدين بن الخطيب، أعما الأعلام ق٤ / ١٨٤ .
2- العبر، ٦/٤٣٠ ، عند ابن عذاري ٨٠٠ موضع أو مدينة، ونحو ٧٧٠٠ ، انظر، البيان، ١/٢٢٤.
3 -RENE BASSET , recherches sur religion de berbères, paris, 1910, p. 48- 91.
4- يبدو أنها مدينة سالة وهي مدينة قديمة أثرية بضواحي مدينة الرباط اليوم (حي المطار)، ويفصلها عن مدينة سالا وادى ابن الرقراق.
5- ابن خلدون، العبر، ٦/٤٣١ .

يقولون: النبي أبو غفيـــر فأخـــزى الله أم الكـــاذبينا
ألم تسمع و لم تر لؤم بيت على آثـــار خيلهـــم ربينـــا
رنين الباكيات فبين ثكـــلى وعادمـــة ومسقطـــة جنينا
سيعلم أهل تامستا إذا مـــا أتـــوا يـــوم القيامة مهطعينا
هنالك يونس وبنو أبيـــــه يقـــودن البرابـــر حائرينـــا
إذا زر ياور طافت عليهم جبهتهم بأيـــدي المنكريـــنا
فليس اليوم يومكم ولكـــن ليـــالي كنتم متيسرينــــــا

٦ ـــ **أبو (حمص) الأنصاري عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف (٢٩٧ ـــ ٣٤٩ /٩٠٩ ـــ ٩٦٠)**، كان كثير الدعة مهابا عند ملوك عصره الذين هادونه ودافعوه بالمواصلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل، ولا يلبس المخيط، ولا يعتـم، ولا يعتم أحدا في بلده إلا الغرباء[1]، وكان حافظا للجار، وفيا بالعهد، وكان ينتظر عودة جده الشيخ صالح النبي[2]، وبعد حكم دام أربعا وأربعين ســـــنة تقريبـــا مـــات ودفـــن بامسلاخت وبها قبره[3].

٧ ـــ **أبو منصور عيسى بن أبي الانصاري عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاد بـــن اليسع بن صالح بن طريف (لا تعرف تواريخه)**: ولي حكم بلده برغواطة وهو ابن اثنـــين وعشرون سنة فسار بسيرة أبائه، وادعى النبوة والكهانة، وكان شديدا خضعت له قبائل المغرب، وهو بعد أبي منصور سابع الأمراء من أهل بيت طريف والذي كان موعـــودا أن يرجع في عهده صالح بن طريف، خاصة وأن والده كان قد أكد له قبل وفاته بأنه ســابع الأمراء وأن صالحا سيأته[4]، ويعد عهد عيسى هذا عهد انقراض ملكـــهم في برغواطـــة[5]

1- يبدو أن العتمة هنا تعني صلاة العشاء ؟
2- لسان الخطيب، أعمال الأعلام، قسم٣، ص، ١٨٦.
3- ابن خلدون، العبر، ٦/٤٣١.
4 - نفسه، ٦/٤٢٣.
5- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ١٨٦.

على يد المرابطين حيث دخل البرغواطيون الإسلام بصورة نهائية، وتخلى آل طريف عن إدعاء النبوة .

شريعة برغواطة

لقد وضع مدعو برغواطة تشريعات دينية أدعوا أنهم أوحي بها إليهم، والواقع أنها لا تتعدى أن تكون تحريفا لتعاليم شريعة الإسلام، وما جاء به القرآن والسنة النبوية الشريفة، وهي مزيج من التقاليد القديمة الموروثة، وإن كانت المصادر ترجع تشريعات هذه الديانة ـــ البدعة أو الفتنة ـــ إلى صالح بن طريف غير أنه يظهر أن المدعين السبعة اشتركوا في وضعها، ويؤكد هذا البكري[1]، حسب رواية زمور.

ويلاحظ في الرواية تحامل واضح خاصة أن صاحبها لم يكن من قبيلة برغواطة بل كان يقيم بينها، وتجدر الإشارة إلى أن هذه التشريعات وضعت باللغة البربرية ثم نقلت إلى اللغة العربية نقلها مسلم بن شلة ويدعى أبا موسى بن عيسى بن داود[2]، أما عن الجانب العقائدي في هذه الديانة الشعائرية الطقوسية، فلا تقدم لنا المصادر إلا معلومات قليلة جدا [3]، كما آتى هؤلاء المتنبئين بقرآن حاكوا به القرآن الكريم.

قرآنهم "الموضوع": نقل البكري رواية وضع هذا القرآن عن زمور قال: "وقرآنهم الذي وضع لهم صالح بن طريف ثمانون سورة أكثرها منسوبة إلى أسماء النبيين من لدن آدم أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس، وفيها سور فرعون، وقارون، وهامان، وياجوج وماجوج، والدجال، والعجل، وهاروت وماروت، وطالوت، ونمرود ـــ وهذه تشبه سور القصص القرآني ـــ، وسور الديك، والحجل، والجراد، والجمل، والحنش وكان يمشي على ثمانية أرجل، وفيها سورة غرائب الدنيا، وهناك العلم العظيم عندهم"، وقد ذكر بعض الكلمات المترجمة من أول سورة أيوب وهي استفتاح كتابهم: "بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس هو الذي بين لهم به أخباره قالوا علم إبليس القضية

1- المغرب،١٣٨ .
2- نفسه، ١٣٤، دائرة المعارف الإسلامية، ٣/٥٥١ .
3- الفرد بل، الفرق، ١٩٤ .

أبى الله ليس يطيف إبليس كما يعلم الله سل أي شيء يغلب الألسن في الأفولـــة ليـــس يغلب الألسن في الأفولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس اســتقام الحق أنظر محمدا. وعبارة ذلك بلسانهم: "ايمني مامت فما مت محمد"أي كان حين عــاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه حتى مات ففسد الناس كذب من يقـــول: أن الحـــق يستقيم وليس ثم رسول" وهي سورة طويلة[1]

وما يلاحظ على هذا القرآن الموضوع المبتدع هو أنه القرآن الكريم نفســـه محرفـــا ومشوها، فأسماء سوره تقريبا واردة في القرآن الكريم، والاختلاف هو أنه وضع باللســان البربري، وأن سوره ثمانون سورة عوض مائة وأربع عشرة سورة في القرآن العظيم، هــذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فإن عدم وصول نصوص هذا القرآن يحد مـــن إمكانية التقويم والحكم، وباعتماد هذا النص الذي سمح البكري بوصوله إلينـــا فإنـــه لا يتعدى إعادة تركيب وترتيب لما جاء في القرآن الكريم من أخبار وأحكام، انطلاقا مـــن بسم الله الرحمن الرحيم.

ويبين هذا النص أو واضع القرآن أنه لا ينكر نبوة محمد ﷺ، ولا الوحي فهو يتحــدث عن النبي محمد ﷺ: "كان حين عاش استقام كلهم الذين صحبوه حتى مات ففسد الناس، فمن يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله ﷺ" ويريد القول أنه لابد للناس من نـــبي حي ليستقيموا بدليل أنه عندما مات محمد ﷺ فسد الناس، وهذا لا يبرر ادعاؤه النبـــوة، ويؤكد للناس ضرورة وجود النبي والوحي ليستقيم الناس، ووجود خلفاء له يواصلـــون رسالة، ويسهرون على تنفيذ تعاليم شريعته.

تعاليم الشريعة المبتدعة: سأقدم فيما يأتي تشريعاتهم كما أوردتها المصادر لاســـيما البكري مع تبويبي لها وتعليقي عليها.

1- نبكري: المغرب، ١٤٠

أ ـــ في العبادات:

١ ـــ **الوضوء**: من واجبات الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة، وغسل الوجه، ومسح العنق والقفا، وغسل الذراعين إلى المنكبين، ومسح الرأس ثلاث مرات ومسح الأذنين كذلك، ثم غسل الرجلين من الركبتين، وأن الاغتسال من الجنابة لا يكون إلا من حرام[1].

٢ ـــ **الصلاة**: شرع لهم خمس صلوات في النهار ومثلها في الليل؛ وبعض صلواتهم إماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجدات متصلة، ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر وإحرامهم أن يضع إحدى يديه على الأخرى ويقول: ابسمن ياكش؛ وتفسيره بسم الله، مقـر ياكوش، وتفسيره الكبير الله ويضعون أيديهم مبسوطة في الأرض طول ما يتشهدون ويقرأون نصف قراءتهم في وقوفهم ونصفها في ركوعهم ويقولون في تسليمهم بالبربرية: الله فوقنا لم يغب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ثم يقولون: مقر ياكش خمسا وعشرين مرة؛ وايحن ياكش مثلك، ومعناه الواح الله، وردام ياكش مثل ذلك ومعناه لا أحد مثل الله وهم يجمعون يوم الخميس ضحا، وليس عندهم آذان ولا إقامة، وتعرفون أوقات الصلاة بصياح الديوك ولذلك حرموها.

٣ ـــ **الزكاة**: يأخذون العشر من جميع الحبوب دون غيرها.

٤ ـــ **الصوم**: يكون في شهر رجب بدل رمضان، يصومون يوم الخميس ضحا، ويوم الجمعة من كل أسبوع.[2]

ب ـــ الحياة الاجتماعية: وأهم ما أوردت المصادر في شأنها ما يأتي:

١ ـــ يتزوج الرجل ما استطاع من النساء مع شرط القدرة على الإنفاق عليهن.

٢ ـــ يمنع فقط من التزوج من بنات عمه أكثر من ثلاثة.

1- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، طبعة حجرية بفاس بدون تاريخ، ٧٠. السلاوي، الاستقصاء، ١/ ١١٤.

2- البكري، المغرب، ١٣١ ؛ ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩. السلاوي، الاستقصاء، ١/١١٤

٣ ـــ يطلق ويراجع بدون قيد او شرط.

٤ ـــ يقولون عند تناول الطعام والشراب: باسمك ياكساي، وتفسيرة حسب زعمهم باسم الله [1]

ج ـــ الحدود

1 ـــ السارق يقتل بالإقرار والبينة وحيث وجد وزعموا أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف[2]. 2. الزاني يرجم. 3. ينفى الكاذب الذي يسمونه "المغير. 4. الدية في شريعتهم مائة من البقر.5. رأس كل حيوان عليهم حرام. 6.الحوت لا يؤكل إلا بعد أن يذكى ـــ يذبح.6. البيض عندهم حرام، والدجاج مكروه ما عدا المضطر، والديوك حرام.

د ـــ التبرك والكرامة: يبدو أن طلب البركة من هؤلاء المدعين للنبوة كان واجبا ومطلوبا، حيث كان نبيهم يبصق في أيديهم فيلعقونه تبركا به ويحملون بصاقه إلى مرضاهم يستشفون به[3]، وعليه فالمتمعن في هذه الشريعة يلاحظ بيسر الآتي:

أولا– أنها لم تخرج عما جاءت به شريعة الإسلام في كل هذه المجالات.

ثانيا– أنها عبارة عن إعادة ترتيب وتحريف وذلك بالزيادة أو النقصان لتعاليم الشريعة الإسلامية، وفرائضه وأركانه.

ثالثا– أنها مكيفة حسب تقاليدهم وطبائعهم لاسيما الجبلية.

٤– **قاموا** تجسيد بعض أخلاق الإسلام كالتشدد في معاقبة الزاني والكـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ي الأخلاق التي تنسجم مع طبائع البدو والريفيين، كما تنسجم مع عقائد الخوارج الذين يعدون الكذب من الكبائر، وكذلك دية القتل الباهضة ـــ مائة من البقر ـــ .

٥– كما أن تقديس أنبياءهم، والتبرك بهم يترجم تقاليد وثنية قديمة، وبقايا تقاليد دينية متوارثة، ويكشف عن سر تواصل هذا التقديس في تاريخ بلاد المغرب الذي تجلى في

1- السلاوي، الاستقصاء، ١/١١٤ .
2- نفسه، ١/١١٥ .
3- البكري، المغرب، ١٣٥ ـــ ١٤٠ .

أشكال مختلفة منها تقديس الولي الصالح، والمرابط، وبعض الشيوخ لاسيما في الظروف الصعبة التي يشيع فيها الفقر والجهل.

* **مدعو غمارة**: تواصلت الثورات بأشكال مختلفة، وقد استخدم السكان كل وسائل المقاومة العسكرية والعقدية والفكرية لذلك توالى ظهور مدعو النبوة لاسيما في المناطق النائية والجبلية، فقد ظهرت ديانة غمارة بمثل ما ظهرت به ديانة برغواطة في مجكسة إحدى بطونها في نواحي تطوان، وغمارة قبيلة بربرية من مصامدة الشمال وذلك سنة ٣١٥/٩٢٥[1] تقريبا، وكان هذا النسب كافيا ليجعل لحاميم مكانة عالية في قومه.

وأول من أسس هذه الديانة هو: أبو محمد حاميم بن من الله بن حريز بن عمرو ابن وجوفال بن وزروال الملقب بالمفتري[2]، واسم حاميم مأخوذ من القرآن الكريم حيث يوجد عدد من السور تفتح بذلك ـــ حم ـــ وكنيته أبو محمد، وأبوه يحمل أسماء عربية إسلامية هي: أبو خلف من لله، وكذلك جده وجد جده، حيث يدل على أنها أسرة بربرية عريقة في الإسلام رغم ما يقول عنها بعض المؤرخين من أهل السنة، ومن المعلوم أن أسماء الأشخاص لها أهمية بالغة في العقائد السحرية الدينية عند البدائيين لاسيما لدى البربر[3].

وكان لحاميم من البنين محمد وبه كان يكنى ـــ أبو محمد ـــ، وعبد الله، وعيسى الذي كان قد أوفده إلى الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن بن محمد قصد توطيد العلاقات بينهما في ظل تلك الصراعات الداخلية، وضغط الفاطميين المتواصل الذي عمل على احتوى بلاد المغرب كلها، ودخل بذلك في صراع مع بعض القبائل المناصرة من قبل للأمويين، ويمكن القول إن غمارة استفادت من الصراع الأموي الفاطمي على النفوذ في المنطقة الغربية فحققت بعض المكاسب على المستوى الداخلي بكسب سكان الجبال

1- البكري، المغرب، ١٠١ .
2- نفسه، ١٠٠ عند ابن خلدون: حاميم بن من الله بن حريز بن عمر بن رجفو بن أزروال بن مجكسة يكن أبا محمد، ـــ وأبو خلف ـــ العبر، ٦/٤٤، ٤٥.
3- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٣.

الأشداء وتشريع ديانة تليق بطبائعهم، وبساطتهم الفكرية من شأنها تخفيف ثقل تعاليم الشريعة الإسلامية لاسيما فيما يخص احترام النظام والخضوع للسلطة المركزية، وأداء فريضة الزكاة من جهة وإيجاد غطاء شرعي يدعم استقلالها من جهة أخرى وعلى المستوى الخارجي كسب دعم الأمويين بالأندلس لهم.

وقد ظهرت ديانة برغواطة في بداية القرن الرابع الهجري في ظروف ساد فيها الحكم الفاطمي بلاد المغرب، واختفاء الإمارات التي كانت قائمة، واشتداد الصراع الأموي الفاطمي على مناطق النفوذ، ولا ريب أن أفكار الخوارج الصفرية، والصراعات السياسية بين القبائل الجبلية البعيدة عن مراكز التمدن والتحضر التي تتميز بروح التمرد حيث شكلت عائقا أمام انتشار تعاليم الشريعة، والثقافة العربية الإسلامية في هذه المناطق، الشيء الذي أسهم في بقاء التقاليد القديمة قائمة بما فيها المعتقدات الوثنية، وبقايا الديانتين اليهودية والنصرانية، ومن هذه القبائل "غمارة" التي ظلت على خشونتها الجبلية غارقة في الجهالة والبعد عن الشرائع والانتباذ عن مواطن الخير كما يقول ابن خلدون[1].

وهؤلاء الجبليون كانت سذاجتهم في الاعتقاد يضرب بها المثل في كل العصور[2]، كما عرفت المنطقة بالسحر والسحرة، وهي التي ظلت تغذي بلاد المغرب بهذا النوع الذي مازال ذلك متواصلا حتى زماننا، وتأتي نبوة حاميم وغيره في سياق محاولة هؤلاء إبراز قدراتهم الفكرية، وقولبة تعاليم الشريعة الإسلامية وفق طبيعتهم وتقاليدهم وتكوينهم النفسي، وهو ما يبين أنهم لم يرتدوا عن الإسلام إنما حاولوا تكييف تعاليمه لكي يتمكنوا من المشاركة في البناء الحضاري ببلادهم، والحقيقة أن المصادر السنية التي أوردت أخبارهم انتقت ما يسفه هؤلاء، ويبطل دعوتهم، ويصرف الناس عنهم، والمعالجة هذه جرّت على بلاد المغرب وشعوبها الويلات ومازالت لأن عدم فهم الأخر والاعتراف له بجهوده، وأنه شريك أساسي في عملية التطور والتطوير، يضعف من التماسك

1- العبر، ٦/٤٤ .
2- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٠ .

الاجتماعي، يخلق الهزات العنيفة التي تتبعها ارتدادات، وبالتالي يكون عـــاملا ســـلبيا في ترسيخ ذهنية عدم الثقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الأمة وعلمائها، وبين ما هو نظـــري، وما هو عملي، ويتيح للأجنبي التدخل في شؤونه، أو الاستعانة به، فإعادة قراءة تاريخنـــا بتجرد ودون انفعال هو وحده الكفيل بحل هذه المعضلات، أقول هذا قبل التعـــرض إلى بعض تفاصيل ديانة أغمارة فيما يأتي.

ظهرت نبوة حاميم أو ديانة غمارة في جبل حاميم[1] قرب تيطـــاوين ســـنة ٣١٣/٩٢٥، واجتمع إليه كثير من أفراد قبيلته, واقروا بنوبته، وشرع لهم شريعة مثل شـــريعة صـــالح المؤمنين نبي برغواطة وقد ألف حاميم قرآنا باللسان البربري، ومما أورده البكري مترجمـــا إلى اللغة العربية بعد التهليل الذي يشبه افتتاح السور القرآنية بباسم الله الرحمن الرحيم: " حلني من الذنوب يا من يحل البصر ينظر في الدنيا، حلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحرـــ ومنه أيضا: أمنت بحاميم وبأبي خلف، وأمن رأسي وعقلي وما أكنه صـــدري وما أحاد به دمي ولحمي، وأمنت بتا نفيـــت[2](عمة حاميم).

ولا يعدو أن يكون هذا القرآن، إلا دعاء مستنبطا من القرآن نفسه، ومـــن أدعيـــة الرسول ﷺ حيث لم يأت بجديد إلا جملة: "أمنت بحاميم وبأبي خلف" وغـــيره محاكـــاة للقرآن، وهو ما خدم القرآن فسهل انتشار أساليبه، وتعاليم الشريعة الإسلامية بين هـؤلاء السكان الذين هم بعيدين عن التحضر.

وفي هذا السياق جاءت تشريعات أو ديانة غمارة كما يحلو لبعض المؤرخين تسـميتها حيث تنسب أحيانا إليها، وأحيانا أخرى إلى المتنبيء حاميم، ويظهر أن حاميم أول مـــن وضع تشريعاها، وأضاف إليها من جاء بعده يبدو ذلك فيما يأتي:

العبادات: لم تمدنا المصادر بتفاصيل عن هذه التشريعات ماعدا الإشارات التي

1- ربما سمي باسمه فيما بعد أو حمل من قبل اسم العائلة أو العشيرة.
2- البكري، المغرب، ١٠٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦/٤٤، ابن أبي الزرع، الروض القرطاس، ٩٩.

أوردها البكري وتتعلق بأربعة أركان هي نفسها أركان الإسلام، وفيما يتعلق بالتحريم والتحليل وهي:

الصلاة: ففيما يخص الصلاة فقد أسقطت هذه الديانة الوضوء، و لم يبق من الصلاة المفروضة إلا أثنين صلاة عند طلوع الشمس، وأخرى عند غروبها، وصار السجود يتم على بطون أكفهم[1].

الزكاة: أما الزكاة فالأخبار عنها غامضة جدا، وما سمحت به المصادر هو فرض العشر على كل شيء دون تحديد العشر إن كان من الدخل أو من رأس المال، وهل توجد حدود لإخراج هذا العشر مثل ما هو محدد في الفقه الإسلامي[2]

الصوم: شرع صوم يوم الخميس كله، وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر فمن أكل فيهما فيهما غرم خمسة أثوار تقدم للمتنبيء حاميم[3].

الحج: أما الحج فقد قضى تشريع هذه الديانة إسقاطه و لم يعوضه بفرض آخر[4]

المعاملات: أحلت هذه الديانة أكل لحم الخنزير، وقد أدعت أن القرآن الكريم لم يحرم إلا ذكورها أخذا بظاهر الصيغة القرآنية[5].

ويورد صاحب روض القرطاس أخبارا مخالفة لما أوردته المصادر قبله خاصة البكري لكن لا يذكر من أين استقاها، ويقول أن حاميم: فرض عليهم صوم الاثنين، وصوم الخميس إلى الظهر وصوم الجمعة، وصوم عشرة أيام من رمضان، ويومين من شوال، ومن افطر في يوم الخميس عمدا فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوار، ومن افطر يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين[6]، لكن المتمعن يتبين أن هذا التشريع ما هو إلا تكييف لتعاليم

1- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩ .
2- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٥ .
3- البكري، ١٠٠ ؛ ابن خلدون، العبر ،٦/٤٥ .
4- الفرد بل، المرجع السابق، ١٨٨ .
5- يبدو أنه تأويل للآية القرآنية الكريمة التي ورد فيها تحريم أكل لحم الخنزير وهي: "**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" البقرة ،١٧٢ .
6- ابن أبي الزرع، روض القرطاس، ٩٩.

الشريعة، وإعادة ترتيب للصلوات ولأيام رمضان، والأيام المفروض صيامها، وليست ابتكارا وقد ظلت هذه الديانة قائمة حتى القرن الثامن الهجري[1]

ويجب أن التوقف عند مسألتين هامتين هما ديانة صالح بن طريف السابقة الذكر، والسحر. فالمسألة الأولى تخص أوجه الشبه بين ديانتي غمارة وبرغواطة في كثير من تعاليم شريعتهما، ولا ريب أن ديانة برغواطة التي تواصلت حتى عهد نبوة حاميم قد أثرت في ديانة غمارة كما أن رجالها الأولون كانوا ضمن جيش غمارة سنة ٣٥٠/٩٦١ [2]، حيث اطلعوا على تعاليم دينتها، واستفادوا من أساليبها في الحرب، وقد كانت بعض تعاليم شريعة غمارة هي نفسها تعاليم شريعة برغواطة، وهو ما يدل على تواصل رد الفعل في لونه الفكري والعقدي من طرف البربر، ومحاولة من المحافظين وذوي المصالح في الإبقاء على سلطتهم في نطاق القبيلة، وهو الأمر الذي ظل يحرك التاريخ ويوجهه في بلاد المغرب.

اما المسالة الأخرى المتعلقة بالسحر فيجب النظر إليها في سياق التحول العقائدي والفكرى والثقافي والاجتماعي لسكان بلاد.المغرب، فقد ذكر البكري أن لحاميم عمة تسمى **تاتفيت** كانت كاهنة ساحرة، كما كانت له أخت تدعى **دخو** كانت هي الأخرى ساحرة وكاهنة تتكهن لهم قبل بداية كل حرب أو إذا حل بهم ضيق[3]، ولابد هنا من الرجوع إلى الوراء قليلا وبالضبط إلى الكاهنة التي قاومت الفتح العربي الإسلامي انطلاقا من الأوراس، ويدل هذا على تواصل هذا التقليد أو الاعتقاد ببلاد المغرب حتى عصرنا فتلحظ في ربوع بلاد المغرب العرافات (القزانات)، فهل هذا تواصل للطابع البدائي للنظام الاجتماعي الذي تغلب عليه "الأموسية ــ نسبة إلى الأم ــ" ؟ ولا ريب أن الطبيعة تسهم في تكوين ذلك، وهو ما تؤكده إشارة ابن خلدون حول منتحلي السحر من النساء العواتق اللواتي كانت لهن قدرة على استجلاب روحانية ما يشاؤنه من

1- البكري، المغرب، ٢٠١، ابن خلدون، العبر، ٦ /٤٥، ٤٧ .
2- ابن خلدون، العبر، ٦/٢٧٧ .
3- البكري، المغرب، ١٠٠ ؛ ابن خلدون، العبر، ٦/ ٤٥ .

الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكيفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في الأكوان بما شاءوا[1]، ويبدو أن الاشتغال بالسحر والكهانة لم يكن قاصرا على النساء فحسب بل شاركهم الرجال، ومن أمثلة هذا السحر أن المخالف منهم للمتنبيء ولشريعته يصاب بعاهة لحينه[2]، وطبيعي أن تشهد مرحلة التحول مثل هذا اللون من التفكير والمظاهر الاجتماعية لا سيما في ظروف يصعب فيها محو التقاليد والمعتقدات التي ترسخت عبر آلاف السنين وأصبحت تشكل تراث الأمة وذاكرتها، ومن ثم فإن تواصلها كان طبيعيا، والملاحظ أن الديانتين اليهودية والنصرانية لم تستطيعا إضعافها أو تكييفها بل تكيفا هما معها، والشريعة الإسلامية هي التي كان لها أثر إيجابي في هذا المجال حيث استطاعت بفطرتها التوغل في أوساط سكان هذه المناطق وتحدث الهزة النفسية ثم التغيير لأن تعاليمها كانت تمثل البديل الأمثل لهذه التقاليد والمعتقدات فعلى سبيل المثال حلت محل السحر ومن ثم القضاء عليه لأنها أتته من الباب الواسع والحقيقي وهو محاربة الجهل بإشاعة التعليم الذي يعتبر فرضا بين سكان هذه القبائل الجبلية البدوية المتحركة. وبعد مقتل حاميم بقيت غمارة على ديانته، وكان يظهر فيها من حين لآخر متنبيء منهم عاصم بن جميل اليزدجومي.

كما تنبأ أحدهم بنواحي تلمسان في القرن الثالث الهجري أي حوالي ٢٣٧/٨٣١، ويقول صاحب روض القرطاس[3]، أنه تأول القرآن على غير وجهه، فاتبعه خلق كثير من الغوغاء، وتجب الملاحظة حسب هذا المصدر أنه لم يأت بقرآن جديد مثل صالح وحاميم، ولكنه قام بتفسير القرآن الكريم متأولا مقتديا في ذلك بالشيعة لاسيما فرقة الإسماعيلية ا

1- العبر، ٦/٤٦ .

2- البكري، المغرب، ١٢٠١ = فمما أورده البكري في هذا الشأن: "ومن أعاجيب بلد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرادة وهم في وادى لوعند بني سعيد وعند بني قطيطان وعند بني يروتن يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى، ولو قطع قطعا فإذا بعد ثلاثة من غشيته، استقيظ كالسكران، ويكون يومه ذلك كالواله لا يتجه لشيء فإذا أصبح في اليوم الثاني آتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك وهذا أمر مستفيض لا يخفى ".

3- ص، ٩٨ .

التي كانت تعاليمها قد انتشرت في نهاية هذا القرن ببلاد المغرب خاصة بلاد كتامة وإفريقية. فهل كان هذا المتنبيء متأثرا بدعوة الإسماعيلية أم بديانة برغواطة وغمارة حيث أن منطقة تلمسان واقعة بينهما ؟

ومن شرائع هذا المتنبيء أنه كان ينهي عن قص الشعر وتقليم الأظافر، ونتف الإبطين، والاستنجاء، وأخذ الزينة، ويبدو أنه لم يأت بشيء جديد، وأنه كان من أنصار الطبيعة حيث يرى أن لا تغيير لخلق الله، وأنه كان كغيره موحدا مؤمنا[1]، واعتقد أن هذه التعاليم البسيطة هي من وضع الكتاب قصد تلفيق تهم لهؤلاء الذين قد يكونون من الثائرين العلماء المفكرين المعارضين .

وتخبرنا المصادر خلال القرن الرابع الهجري عن متنبئين آخرين منهم متنبيء كتامة على عهد المهدي الفاطمي إذ تذكر أنه لما أبعد المهدي رجال كتامة ومعهم الداعية أبا عبد الله عن المشاركة الفعلية في تسيير الحكم القائم لجأ عدد من هؤلاء إلى مناطقهم بكتامة، واعلنوا خروجهم عن طاعة المهدي الفاطمي وبايعوا واحدا منهم وزعموا أنه المهدي المنتظر وكتبوا كتابا فيه شريعتهم وادعوا أنها نزلت عليهم وجاء بها مهديهم[2]، وهو المدعو الماوطي أو المارطي كادو بن معارك وفي بني ماوطنت من أورسة، وقد نصبوا له دعاة على مثال تنظيم الدعوة الإسماعيلية، وجعلوا من مقامه قبلة يتوجهون إليها في صلاتهم، وهنا أيضا تظهر أصابع الفاطيين وأهل السنة في كيل التهم لهذا المتنبيء أو الثائر.

وفي هذا السياق ظهر متنبئون آخرون منهم متنبيء أدعى النبوة بجبال الأوراس، وتسمى بالناصر لدين الله قال عنه إدريس عماد الدين القرشي[3]: "آتى بمخرقة كثيرة وألوان عجيبة استمال بها العامة".

1- الفرد، بل، ١٨٨ .
2- النعمان، افتتاح الدعوة، ٣٢٤، ابن عذاري، البيان، ١٦٦/١ .
3-إدريس عماد الدين القرشي، عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، تحقيق مصطفى غالب، (بيروت، د .ت) دار الأندلس، ٢٠٧/٥ .

والنتيجة التي يمكن الخروج بها من هذه الدراسة تكمن أساسا في أن أشهر المتنبئين هم ثلاثة صالح، و حاميم[1]، وعاصم، الذين لم ينجحوا في تحريف عقيدة الإسلام وشريعته بل أسهموا في فتح قلوب الناس لها لاسيما الجبليون.

وبلورت هذه الحركات قدرة سكان المغرب على التكيف الاجتماعي، والمشاركة الإيجابية في العطاء الحضاري، وبينت أن تحامل الخصوم على هذه الحركة وتشويه حقيقتها وأبعادها مثل ما عملت على تشوية الحركات الثورية الأخرى لم تستطع طمس كل معالمها ومنعها من الإفلات والوصول إلينا من خلال عدد من المصادر.

وقد حاول الاستدمار الفرنسي في العصور الحديثة تحريك هذه الحركات على المستويين

١ ـــ **المستوى الفكري**: حيث خصص لها الكتاب والمؤرخون الفرنسيون ومن سار في ركابهم حيزا كبيرا في مؤلفاتهم منهم الفرد بل في مؤلفه " الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم " محاولين بذلك التأصيل لها إحياء لتقاليد وثنية مخلوطة ببعض التعاليم اليهودية والنصرانية.

٢ ـــ **المستوى العملي**: وذلك بتطبيق بعض التقاليد في مجال اللغة حيث جمعوا كلماتها ولهجاتها وكتبوا بها وأدخلوها مجالي الإعلام القضاء .

والحقيقة أن الاستدمار عندما وظف دعوة هؤلاء المتنبئين أو حركات المعارضة التي كانت جد طبيعية تدل على حركية المجتمع في ظل الشريعة والحضارة الإسلامية لتخدم أغراضه في الهيمنة الثقافية والاستغلال الاقتصادي في وجوده أو بعده وجوده بخلق فتن وبؤر توتر وأذناب له باسم الهوية يدافعون عن مصالحه.

1- المقري، الجمان في مختصر أخبار الزمان وأخبار الخلفاء الراشدين والأمراء والسلاطين،مخ رقم، ٨٤٠٧ دار الكتب بتونس، و٩٨.